BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

منتدى الحوار

Dialogue Forum

(DF)

لمـــاذا التـــراث!

جابر عصفور:

سوف نتحدث في موضوع في تقديري أنه بالغ الأهمية، وهو موضوع التراث. والتراث الذي سيتم الحديث عنه اليوم، ليس تراثًا ميتًا منتهيًا ، ولكن له امتدادات حية تسهم في حياتنا بأشكال قد يراها البعض إيجابية، وقد يراها البعض الآخر سلبية. ولذلك طلبت من أخي وصديقي الأستاذ الدكتور يوسف زيدان، أن يحدثنا في هذا الموضوع. وقد اخترت موضوع التراث؛ لأنه يمثل قضية واسعة جدًّا من الممكن التحدث عنها، سواء في معناه الديني أو غير الديني. وقد اقترح الدكتور يوسف زيدان أن يكون عنوان الندوة "لماذا التراث!" على أن يتلوها علامة تعجب، وعلامة التعجب من عنده، وقد كنت أريد أن أضيف إلى علامة التعجب علامة استفهام، إلا أنه كمتحدث أساسي، من حقه أن يختار ما يريد. وعندي شخصيًا ملاحظات كثيرة على التراث، لكن لنستمع أولاً إلى ما سوف يقوله الدكتور يوسف زيدان في هذا الموضوع، وهو أهلٌ للحديث فيه، فهو من ثقات التراث، وقد درس فرعًا من فروع التراث، وانتقل منه إلى فروع أخرى. وهو يدير مركز ومتحف المخطوطات في مكتبة الإسكندرية، وعُرف عنه نشاطه الدؤوب في خدمة التراث العربي. وقد حصل مؤخرًا (عام ٢٠٠٦) على جائزة متميزة فيما يتصل بعلم التحقيق لتحقيقه كتابًا من أهم الكتب التراثية، وهي جائزة (مؤسسة الكويت للتقدم العلمي) عن تحقيقه لموسوعة الشامل لابن النفيس، ولهذا فهو مَنْ ينبغي أن يحدثنا عن التراث، وأنا سعيد بأنه سوف يتحدث في هذا الموضوع.

يوسف زيدان:

عنوان المحاضرة: لماذا التراث! وسوف أتحدث فيما بعد عن علامة التعجب. ولكن دعونا أولاً نضبط الألفاظ، لأن واحدة من أخطر قضايا الثقافة في هذه الأمة هي عدم انضباط الألفاظ وفق المعاني.

ولنبدأ بكلمة (التراث) وهي كلمة عربية فصيحة، لكنها كلمة غير تراثية. أصلها في اللغة واضح بيِّن، فهي من مادة (**ورث**) وهي مادة تشير إلى معنى ليس فيه التباس. وكلمة "تراث" كلمة قرآنية، ذُكرت في القرآن الكريم مرة واحدة في قوله تعالى ﴿وتأكلون التراث أكلاً لمـــًّا. وتحبون المال حبًّا جمًّا﴾ سورة الفجر (الآيتان ١٩، ٢٠) فالتراث جاء في القرآن بمعنى الشيء المتبقي عن السابقين، ولم يستخدم العرب كلمة (تراث) خلال تاريخ التراث العربي، ولم نجد في الكتابات التي بدأت منذ عصر التدوين حتى القرن التاسع عشر الميلادي، كلمة "التراث" مستخدمة، ولا مُشارًا إليها بالمعنى الذي نستخدمه الآن. قد يقولون (الآثار) كما قال البيروني في كتابه (الآثار الباقية عن الأمم الخالية) وقد يُقال ما تركه السَّلَف للخلف. ولكن لفظة (التراث) طفرت في القرن العشرين، ويُقال إن الأستاذ إسماعيل مظهر هو أول من استخدمها، إلا أن المؤكد أنها طفرت بشكل مفاجئ جدًّا، واستُعملت على نطاق واسع، حتى إن نزاز قباني له قصيدة مشهورة يقول فيها لحبيبته: "**أنتِ التراث الذي يتشكل في باطن الأرض منذ ألوف السنين**.." وهو هنا يستخدم كلمة التراث، بأقصى قدرة للمجاز اللغوي، حتى يجعل من حبيبته حقيقة أزلية أبدية.

ولم يقتصر هذا الاستخدام المجازي على الشعر العربي في القرن العشرين، وإنما تعدى ذلك إلى استخدامات غير منضبطة، أدت بنا إلى أزمة حقيقية في الوعي بالظاهرة التراثية. وقد اشتُق من أصل اللفظة وأضيف إليها إضافات كثيرة جدًّا، حتى كاد الأمر يخرج عن أي إحكام للمعنى. فهناك التراث الشفاهي، والتراث المكتوب، والتراث المعماري، والتراث المادي الملموس، والتراث غير الملموس .. إلخ. وبذلك أصبحت الكلمة متعددة الاستعمال، وكما أشار ميشيل فوكو في أحد كتبه، فإن استخدام اللفظ بشكل كبير يخفي معناه، ولذلك وصف عمله بأنه: بحثٌ عن الأشياء التي اختفت، من فرط تواجدها فوق السطح.

وقد كُتب عَلَيَّ، مبكرًا، أن أشتغل بالتراث العربي، وكنت في هذه السن المبكرة غير مقدِّر لضخامة المسألة. فمن خلفيةٍ فلسفية، ومن إعجابٍ شديد بنيتشه والفلاسفة الألمان، إلى الشعر الصوفي وآفاقه اللامحدودة؛ وجدت نفسي على نحوٍ ما، متورطًا في المسألة التراثية؛ لأنني بادرت في السنة الرابعة من دراستي الجامعية إلى تحقيق مخطوطة بعنوان (المقدمة في التصوف لأبي عبد الرحمن السُّلَمي)، فقد كنت أتردد كثيرًا على مكتبة بلدية الإسكندرية، ورأيت أن هذه النسخة المخطوطة هي النسخة الوحيدة في العالم من هذا الكتاب. وبدافع الشغف المعرفي العام، وليس المتخصص، طلبتُ المخطوطة لأطَّلع عليها، فوجدت فيها ورقة منـــزوعة.. أثَّر هذا فيَّ تأثيرًا كبيرًا، وفي اليوم نفسه نقبت عن الكتب التي تعالج مسألة تحقيق المخطوطات، ووجدت بعض أعمال برجستراسر وعبد السلام هارون وغيرهما. وبهذا النَّـــزق غير المتأني وجدت نفسي محقِّقًا للمخطوطات. وكان ذلك عندي، هو بدءُ الإحساس بالمسئولية الفادحة تجاه

هذا التراث الذي تشتَّت معانيه، واختلطت، وتوزعت، وأضيفت إليها كلمات فاتسعت ألفاظها واتسعت معانيها. غير أن الضبط الدلالي لهذه الكلمة، سيجعلنا على سبيل التجاوز نقصُر الكلام على التراث المتروك لنا، من الأجيال العربية السابقة. وهذا التراث أغلبه، إن لم يكن كله، مكتوبٌ في كتبٍ قديمة بخط اليد، هي المعروفة بالمخطوطات. وهناك بالطبع نقوشٌ على المساجد، وهناك بعض الرسائل المكتوبة على أوراق البردي. ولكن الغالبية الغالبة على تراث الأوائل الذي تركه لنا السابقون، هو المخطوطات.

وهنا تظهر بداية الأزمة التي لم أكن مقدرًّا لفداحتها، فقد كنت أظن أنني سأعرف بعضًا مما كتبه السابقون، كنوع من المعرفة العامة، فوجدتُ أطنانًا من المعارف مجهولةً تمامًا. وفي هذا الوقت كانت الأسلحةُ تصطك حول قضيةٍ عجيبةٍ، وهي "قراءات التراث" والناس من المغرب والمشرق، يكسرون النصال على النصال، ويحتدون ويكتبون (قراءاتٍ للتراث) وكنت مندهشًا .. فكيف يمكن قراءة تراثٍ، خمس وتسعون بالمائة منه مخطوطٌ؛ لم يُنشر! في حين لا يوجد في أي كتاب من هذه الكتب التي تزعم أنها تقرأ التراث؛ مرجع واحد مخطوط. إذن، كيف لهذا الكاتب أو ذاك، أن يزعم أنه يقدم قراءة للتراث؛ والقراءة بالمعنى المعنوي هي (رؤية) وحتى ما نُشر من التراث حتى الآن، بحكم الواقع الإحصائي ضئيل، فإذا أحضرنا فهرسًا من المخطوطات لنحسب كم نُشر من هذه المجموعة، فلن يزيد عن ٥%.

إذن كان العالم يشاهد خلافًا بين أساتذة يزعمون قراءة التراث، ولا أحد منهم رجع إلى مخطوطة واحدة، وهنا كان همي الأول هو تحقيق المخطوطات، وقد انتهجت منذ البداية نهجًا يميل إلى تفادي الاصطدامات الشكلية، بحيث أميل أكثر إلى أن أنجز شيئًا؛ لأن خلفيتي الصوفية تقول: "لا نحب من الكلام إلا ما تحته عمل" وقد شرعت في العمل، فوجدت أن تحقيق التراث سير في ظلام، أو ما كان يوصف في اللغة القديمة بأنه (خبطُ عشواء) لأن المجموعات الخطية غير مفهرسة، وفي دار الكتب المصرية لدينا من خمسين ألف إلى سبعين ألف مخطوطة، وفي مكتبة بلدية الإسكندرية من أربعة آلاف إلى ستة آلاف مخطوطة، وفي مكتبات مصر الفرعية من ثمانية آلاف إلى مائة وعشرين ألف مخطوطة. فكانت الفادحة الثانية أننا لا نعرف عدد المخطوطات الموجودة ناهيك عن افتقارنا لأي وصفٍ لها، فكل ما تركه الأوائل هو عبارة عن ركام، فلا توجد قوائم حتى تبين ما يشتمل عليه هذا الركام، والسؤال هو كيف كان المحققون يحقِّقون؟ وظهر أن الأمر كان يتوقف على الهوى الشخصي، فقد يحدث أن يُعجب أحدهم مثلا بعبد القاهر الجرجاني فينشر له كتابًا، وآخر يُحب أو يستسهل هذه المخطوطة فينشرها، وقادتني الفادحة الأولى إلى الفادحة الثانية، فعملت بالفهرسة زمنًا طويلاً، والفهرسة هي أكثر أعمال المخطوطات مشقةً وأقلُّها مجدًا، فلا أحد يلتفت للمُفهرس الذي يقضي الشهور والسنين ينقِّب في هذه الكتب المكتوبة بخط اليد، وأغلبها لا غلاف له، ويُطالَب بأن يقدم لنا كتابًا فيه وصف لهذه المجموعة. ويتعامل المُفهرس

مع كل العلوم؛ لأنه يجد مخطوطة في المنطق وأخرى في الطب وهكذا، فإنه يجب أن يعرف جيداً هذه المعارف، وإن أخطأ مرة لن يرحمه المتخصصون ، وسيوجهون إليه النقد لوجود خطأ في المعلومات.

ومن هنا اقتضى الأمر دراسة موسعة جدًا لطبيعة الإنتاج الفكري العربي. وكانت هذه هي الفادحة الثالثة، لأن الإنتاج الفكري العربي وصل من التنوع والتواصل إلى ما لم تصل إليه أية حضارة أخرى، فهو إنتاج ألف وثلاثمائة سنة متصلة، لازلنا حتى هذه اللحظة نقرأ الجاحظ بالألفاظ التي يستخدمها كاتب مقال في جريدة "الأهرام". وبين كُتاب اليوم، مثل كُتاب الأمس، منهم من يصعِّب اللفظ ومنهم من يبسِّطُه. وإذا نظرنا إلى كتابات أبي حامد الغزالي المتوفى عام ٥٠٥ هجرية، أي منذ قرابة ألف عام، فسنجد لغته حاضرة كأنه كتبها اليوم. ومن ذلك أن هذه اللغة المتعبة، امتدت بنا هذا الزمن الطويل فتكثفت رؤاها وضغطت علينا، فهربنا من ضغطها بأن سرنا معها سيرًا عشوائيـــًا؛ لأن العشوائية مريحة وسهلة.

وجرى العمل التراثي في بلادنا في القرن العشرين وفقًا لهوى الأشخاص، ولم يتصدوا لعمل فهارس حتى كتلك التي أخرجها المستشرقون الأوروبيون في القرن التاسع عشر، كما أنهم لم يضعوا خطة بعيدة أو قريبة المدى لعمل النشرات التراثية. صحيحٌ أنه كانت هناك مشروعات للنشر مثل تلك التي تبنتها الهيئة المصرية للتأليف والترجمة والنشر. وكانت هناك (مبادرات) كأن يتبنى الدكتور عثمان يحيى نشر الفتوحات المكية ، فتنشرها هيئة الكتاب، لكن كان هذا على مستوى حركة وفعل النشر. أما على مستوى الرؤية المعرفية للتراث، فإنها لم تكن موجودة، ولذا كانت الكلمة الأولى من عنوان المحاضرة، وهي "لماذا التراث" وأظن أنه من خلال هذه الرؤية يصبح السؤال "لماذا" سؤالاً مشروعًا، ومن أدبيات الفلسفة أن تبدأ بسؤال "لماذا" والعلم يبدأ بسؤال "كيف". إذن، أن نقول "لماذا التراث" فنحن نسأل سؤالاً فلسفيًّا يستهدف البحث عن العلة: "هل من الضروري أن نُعنى بالتراث؟" وقد يتعجب بعضنا هذا السؤال، ولكنه قد يتعجب أكثر أن كثيرين قد قطعوا المسألة بقول واحد هو (القطيعة مع الماضي) وهذه مقولة مضحكة جدًا، فها هو شخص يكتب باللغة العربية، ليقول بقطع الصلة مع تراث هذه اللغة التي يستخدمها، ويستخدم تعبيرات صيغت من قبله بمئات السنين ليقطع الصلة مع الزمن الذي كُتبت فيه، فصار الأمر مضحكًا، ومبكيًا في الآن ذاته.

وفي المقابل، عرف بعض من معاصرينا معلومات تراثية فغرقوا فيها، وصار أمرهم كالغريق؛ لأنه كما ذكرنا أن هناك طوفانًا امتد عبر ألف وثلاثمائة سنة من الإنتاج الفكري. وبالقطع هناك الكثير من المعرفة، وبداية المعرفة معلومة ، والكثيرون غرقوا في المعلومات، وهؤلاء هم من يُشار إليهم اصطلاحًا

بالتراثيين، وهم هؤلاء الذين غابوا عن الواقع متوغلين في نص مفرد بعينه، و لم يروا واقعهم، و لم يروا أيضًا تراثهم، وفي مواجهة هذين الموقفين المتطرفين تأتي مشروعية السؤال.

إن التراث ضرورة لأنه فحوى اللغة التي نستخدمها، وهو محتوى العقل الجمعي الذي نفكر به وننفعل معه.. إن معظم ما يزخر به واقعنا من ظواهر له جذور في الماضي. إذن لن نستطيع أن نفهم الحاضر إلا بالنظر في التراث، ويستهدف النظر في التراث دراسة منظمة تستهدف الفهرسة ثم التحقيق ثم الدرس، وهنا يأتي الكلام على علامة التعجب التي تلي "لماذا التراث" وبمنتهى البساطة، فإن التراث عندي هو، إن أردت تمثيل الأمر، بَدْرُوم ضخم لبيتٍ يتكون من دورين أو أكثر، ونحن نسكن في الدور الأخير، لذلك نتعرض للعواصف وللشمس وللهواء وللنسيم العليل، ولكل الظواهر الطبيعية التي تؤثر في الدور الأعلى، والتراث هو البَدْروم بكل ما يحتوي عليه من تحف وكراكيب وحشرات وفئران وقطع من الحديد الصدئ. وينـــزل البعض إلى البدروم ليجد تحفة فنية في شكل تمثال برونزي مثلاً، فيقوم بتنظيفها ويخرجها من البدروم، ويضعها لتزين الدور الذي يعيش فيه، والبعض ينـــزل فيجد فأرًا فيلتقطه ويطلقه حيث يعيش. وسأضرب مثلاً على هذين الفعلين حتى لا تكون هناك دهشة من الصورة المجازية، إن البعض يغوص في التراث، فيقع على تحفة تتمثل في منهج التفكير الذي كان علماء العرب يتبعونه كي يصلوا إلى ما وصلوا إليه، يقابله مثلاً تمثال برونـــزي جميل متمثل في قول علاء الدين بن النفيس: "وربما أوجب استقصاؤنا النظرَ عدولاً عن المشهور والمتعارف، فمن قرع سمعَه خلافُ ما عَهِدَه فلا يبادرنا بالإنكار فذلك طيش، ورُبَّ شنعٍ حقٌ ومألوفٍ محمودٍ كاذبٌ، والحقُّ حقٌ في نفسه لا لقول الناس له، ولنذكر دوما قولهم إذا تساوت الأذهان والهمم ، فمتأخرُ كلِّ صناعة خيرٌ من متقدمها".

هذا المنهج الفكري هو الذي جعل من ابن النفيس مفكرًا كبيرًا. وقد يقع أيضًا على تحفة فنية جميلة في كتاب "القانون في الطب" لابن سينا، حيث يتحدث عن الأمراض النفسية، ويفرد فصلاً عن الجنون السوداوي أو المالنخوليا، فيقول ما نصه: " قد زعم البعض أن هذا المرض إنما يقع عن الجن، ونحن من حيث نتعلم الطب لا يعنينا إن كان ذلك عن جنٍّ أو غير جن، بل نبحث في سببه القريب" هذه قطعة فنية جميلة تُهدى إلى الواقع. وَلْنَقِس على هذا رؤى الشعراء وإبداعات المنهج العلمي وإسهامات أولئك الذين شيدوا المباني الكبرى وابتكروا حلولاً عبقرية لإقامة هذه البنايات الضخمة، أولئك الذين طوروا العلوم المختلفة طيلة ثلاثة عشر قرنًا من الزمان .. هذه هي تحف البدروم، فماذا عن الفئران؟

يهبط أحدنا إلى البدروم فيجد فأرًا متمثلاً في مقولة إن "مرتكب الكبيرة لا هو مؤمن ولا هو كافر، لكنه في منـــزلة بين المنـــزلتين"، فيمسك بهذا الفأر من ذيله ويصعد إلى الدور العلوي حيث يعيش ويطلق هذا الفأر، وهذا الفأر المتمثل في هذه الصيغة ينتمي في الأصل للبدروم، ولا يقع الكلام هنا على

منـــزلة مرتكب الكبيرة، فالكلام هنا يقع على القرن الثاني الهجري بسبب جماعة معروفة بالخوارج كفَّروا كل الناس عدا أنفسهم، وأفتوا بأن كل المسلمين كفرة، وقد دخل رجل على الحسن البصري ليسأله عن رأيه فيما يقوله هؤلاء من تكفير مرتكب الكبيرة فتفكر الحسن البصري، وهنا رد تلميذه واصل بن عطاء بأن مرتكب الكبيرة – أي من يشرب الخمر أو يزني أو غير ذلك – لا هو مؤمن ولا هو كافر، ولكنه في منـــزلة بين المنـــزلتين، وبهذه العبارة أسَّس واصل بن عطاء وصديقه الجميل عمرو بن عبيد مذهبًا معروفًا جداً في تاريخ العقائد ، وهو مذهب المعتزلة. ويأتي أحدهم فتعجبه هذه القصة فيلتقطها سريعًا من بدروم التراث ليلقيها علينا، ويعيد علينا طرح قضية كانت مطروحة منذ ألف ومائتي عام، وندخل من هنا في متاهات عن حكم مرتكب الكبيرة، والفرق بين الكبائر والصغائر، والحكم الشرعي في هذا وذاك، وما إلى ذلك من التفاصيل. وأتساءل : ماذا عن الرياح القادمة من الجنوب محملة بالأتربة، ألا تقتضي أن نغلق لأجلها النوافذ أولاً قبل الخوض في معطيات البدروم؟ وألا يجب أن نفتح النوافذ أمام النسمات القادمة من الجهة البحرية؟

إن حاجة السكن الصحية، قبل الانشغال بهذا الفأر الذي انطلق في واقعنا، لها الأهميةُ والأولوية. ولنا أن نَقِيس على ذلك الكثير من القضايا، وكم من الطاقة تُستهلك وتضيع من واقع هذه الأمة، في قضايا لا تزيد قيمتها عن قيمة فأر التُقط من ذيله من بدروم هذه الأمة وأُطلق في غرف معيشتها. تلك هي الخطوط العريضة لما أريد أن أقول، وأترك الأمر إلى نقاشكم ، علَّنا نصل منه إلى شيء مفيد.

جابر عصفور:

إن حديث الدكتور يوسف زيدان حديث مشوق إلى حد بعيد، وأنا شخصيًّا لا أزال أتأمل في مَثَل الفأر.. وما أكثر الفئران في حياتنا.

فوزي بغدادي (جمعية أصدقاء البيئة):

هناك تناقض بين عظمة التراث العربي على مدار ألف وخمسمائة عام وبين التراث الغربي الوليد، ويتبين من المقارنة ما نحن عليه من تخلف الآن، الغريب أن الغرب هو الذي ينقب عن تراثنا، وخير شاهد على ذلك حجر رشيد والمومياوات التي ترسل للخارج لكي يعرفوا ما بها من أساليب التحنيط وخلافه.

محمد حسني (وزارة التربية والتعليم):

شبه الدكتور يوسف زيدان التراث بالبدروم، وأتساءل لماذا لا ننظف هذا البدروم وننتقي ما يتمشى مع هذا القرن، ويحتوي على رؤية جيدة ورسالة مفيدة بحيث نستفيد به في مجتمعاتنا الحديثة. إن

للتراث رؤية ورسالة، وهذه الرؤية والرسالة تختلفان عن الزمن القديم، لذلك يجب أن نستقي ما يتماشى مع أيامنا في إطار العولمة.

منير مسعود (مستشار):

أنا سعيد للغاية بالتشبيه الذي طرحه الدكتور يوسف زيدان للتراث بأنه مثل البدروم، واليوم نُشر في الأهرام مقالة للكاتب الأستاذ عادل حمودة يعلِّق فيها على الفتوى التي أصدرها الدكتور علي جمعة مفتي الديار المصرية حول مسألة أن التماثيل حرام، وقد قام الأستاذ عادل حمودة بإفراد أسانيد من القرآن والسنة، ومنها قصة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام والذي رشق فأسه في رقبة كبير الأصنام دون أن يحطمه، وأكد أننا ننشغل بقضايا سطحية بلهاء تشغلنا عن الواقع المرير الذي نعيش فيه.

ومنذ ثلاث سنوات، في بدايات غزو العراق، كان الانتهاك لحرمة المقدسات الإسلامية في العراق ونهبها جميعًا، وتأكد مع الوقت أن الذين قاموا بذلك هم صهاينة، ولن أقول يهوداً لأنني أحترم الديانات، وقد قام هؤلاء الصهاينة بسرقة جميع مفردات التراث العربي في بغداد البوابة الشرقية للأمة العربية، إذن، فالقضايا الهامشية التي تُطرح على السطح تستهدف طمس تراثنا وملامحنا ومقدساتنا، وسؤالي هو: كيف تُقابل الحملة بحملة مضادة؟ وأؤكد أن هذه هي مسئولية المثقفين الآن، وألا نسكت، وألا نردد ما يقوله الناس وكأننا قد أصبحنا كالببغاوات، لا يشغل بالنا سوى ترهات تشغلنا عن حالنا ومستقبلنا وعن القضايا المهمة التي يجب أن تتمسك بها.

وبالأمس، كان الشيخ القرضاوي يتحدث في التليفزيون، وقال إن اليوم تُشَن الحملة على حماس وحكومتها القائمة الآن حيث يقومون بمنع الأموال عنها بغرض إذلالها. وعندما حدث الهجوم على الرسول عليه الصلاة والسلام لم يكن المقصود هو الرسول بعينه والذي ينعم في رحاب ربه منذ ألف وأربعمائة عام، لكن المقصود هو شغل الأمة عن قضاياها الحقيقية ومصيرها المحتوم، وأود أن أسمع رأي الدكتور يوسف زيدان في هذا كله.

نبيل عبد الواحد فضل (دكتور):

أعتقد أن عبقرية هذه المحاضرة هي عبقرية التراث- البدروم، والسؤال هو: إذا كانت الفئران قد كثرت ، فهل يا تُرى توجد منهجية للاختيار؟ ومن لديه الحق في الاختيار؟

كمال إسحاق (مهندس استشاري):

إن الأساس في البدروم أنه يحمل الأدوار جميعًا، ومن هنا فلا يمكن الاستغناء عنه إطلاقًا، وفي الخارج يعتبر دور الـــbasement دورًا هامًا للغاية في المنـــزل، بل يدخله الشمس والهواء، لكن عندما تتسرب إلى هذا الدور المياه أو الرطوبة تبدأ في التسرب إلى الأعمدة التي تبدأ بدورها في التشقق مما سيؤذي حتما الأدوار العليا، ودورنا في هذا الزمان أن نصون هذه الأساسات من الشروخ وعوامل التعرية والرطوبة وما إلى ذلك، ولا يمكن أن نظل طوال الوقت نتحدث عن السلبيات والفئران وما يثبط من عزيمتنا ويفقدنا الأمل في أن نصلح أو نغير أو نطور، إن علينا واجب كبير في أن نتلافى كل هذا ونجعل من هذا البدروم مسكنًا صحيًّا ذا نسمات عليلة؛ بها شمس وإضاءة وكل شيء جميل.

فايزة هنداوي (جمعية أصدقاء مكتبة الإسكندرية):

هل نعني بالتراث الحقبة العربية فقط؟ وباعتبارنا مصريين ألا تعني كلمة التراث الحقبة الفرعونية وما تلاها من حقب مختلفة؟ أيضًا، نحن دائمًا نَحِنُّ للتراث، فلماذا لا ننقده نقدًا موضوعيًّا ونقيِّمه تقييمًا يُظهر ما له وما عليه وننفتح، وليس كل ما جاء من الماضي ميزة وكله فوائد، ومن المؤكد أن به موروثات ضدنا وضد حضارتنا وضد تقدمنا، والسؤال هو: من يقوم بهذا الدور؟

سنية محمود (جمعية أصدقاء البيئة):

لقد جعلَنا الدكتور يوسف زيدان نقلق على التراث وتراكماته، وذلك لما يعانيه من ندرة الفهرسة، وسؤالي هو عن مصير التراكمات الثقافية التي تشكل تراثنا العربيّ، وهل تمت فهرسته وتنقيته حقًّا عن طريق الاستعانة بالمتخصصين في هذا المجال، خاصة أنه طرق عدة مجالات من علم وطب وكيمياء وغيرها؟ هل تم إنقاذ هذه الأوراق المكتوبة بخط اليد وحفظها من عوامل الزمن وإنقاذ ما بها من علوم قبل أن تتحول إلى تراب؟ وهل كان للحفاظ على التراث الفعالية الكافية لإفادة المجتمع؟

عبد المحسن كميل (أستاذ بكلية الزراعة – جامعة الإسكندرية):

عندي اقتراح، لقد ذكر الدكتور يوسف زيدان إحدى أشهر الفرق الإسلامية وهي المعتزلة، وأتمنى لو يقوم منتدى الحوار بتنظيم ندوة عن الفرق الإسلامية لكي نوضحها للجمهور العام غير المتخصص، وذلك درءًا للخلاف بين الناس وبعضهم البعض حول هذه المسألة. أيضًا، هل لابد لمن يبحث في التراث أن يكون متخصصًا، أم أنه من الممكن أن يكون هاويًا؟ كذلك، لقد ذكر القرآن الكريم كلمة التراث كما قال الدكتور يوسف زيدان في قوله تعالى "وتأكلون التراث أكلا لَّمًا"، ثم ذكر القرآن الكريم في موضع آخر "وبقية مما ترك آل هارون" وأود أن أسأل عن الفرق بين "التراث" وبين "البقية"؟

متحدث لم يذكر اسمه:

ما قيمة التراث للمستقبل؟ من المفروض أن نخطط لمستقبلنا، فهل سينفعنا التراث للتخطيط لمستقبلنا ، أم أنه كان ينفع الأجيال القديمة فقط؟ فهل له قيمة فعلية؟

يسري حافظ:

ألا يرى الدكتور يوسف زيدان أن التمسك بالتراث الماضي أكثر من اللازم والغوص فيه يُعتبر تخلفًا ويجعلنا أمة تعيش في الماضي، ومثال ذلك أننا نجد الولايات المتحدة الأمريكية والتي تبلغ من العمر ثلاثمائة عام تقبل بالحداثة، بل إنها نموذج لها في كل شيء، وكذلك إسرائيل التي يبلغ عمرها ستين عاما وهي متقدمة في كل شيء من التراث ولا يوجد لها أي شيء، إن التمسك بالتراث يُعتبر استبدادًا أكثر من اللازم، فلو لم ينفع الحاضر والمستقبل فلا فائدة منه، وحتى الآن لم نقُم في مصر بتصنيع قلم رصاص له مواصفات عالمية ومستمرون في الحديث عن حضارة سبعة آلاف عام.

محمد حسنين (جمعية أصدقاء المكتبة):

أود أن أطمئن إخواني بالنسبة للإرث العظيم من التراث الإسلامي الذي ورثناه، فهو في حفظ الله سبحانه وتعالى، أما الإرث الذي نرثه عن أجدادنا وعن أجيال قديمة، فهو الذي نتحدث عنه بمختلف اتجاهاته، وأتساءل هل توجد لجنة مشتركة أو أكثر بين الدول العربية حتى يتم الحفاظ على هذا الميراث العربي حتى لا نواجه مأساة كتلك التي حدثت في العراق، لو لا قدر الله، تتكرر في دولة أخرى؟ أيضًا، ما هي نظرة الغرب إلينا حينما نتحدث عن التراث؟

متحدث لم يذكر اسمه:

لي ملحوظة على الأسلوب المنهجي الذي اتبعه الدكتور يوسف زيدان، فقد أعطانًا انطباعًا أن تراثنا يبدأ منذ ثلاثة عشر قرنًا من الزمان ، أي من بداية العصر الإسلامي فقط، وهذا خطأ في الأسلوب المنهجي، لأن تراثنا يبدأ منذ خمسة آلاف عام قبل الميلاد، وحتى نصل إلى صناعة قلم أو طائرة لابد أن نمر بهذه الفترات التاريخية، وأتمنى لو يعمل الدكتور يوسف زيدان على إزالة هذا الانطباع منَّا. وأحب أن أقول إن هناك برديات فرعونية وبرديات بطلمية وبرديات رومانية وبرديات إسلامية، وأرجو أن يوضح لنا الدكتور يوسف زيدان العلاقة بين هذا التراث وبعضه.

أمير عمار (طالب بكلية الحقوق):

أختلف مع الزميل الذي ذكر أنه يجب الانقطاع عن تراثنا لأنه غير مفيد؛ لأن من ليس له ماضٍ، فلا حاضر ولا مستقبل له، إن تراثنا في الفكر الديني به جواهر، وأتساءل كيف نتواصل ونبدأ من

ابن رشد لنشرع في إعادة تجديد الفكر الديني الموجود، فهذا الرجل الذي ينتمي إلى القرن الثاني عشر الميلادي كان يطالب بتحديث الفكر وإعادة تأويل النصوص وترك النقل إلى إعمال العقل، إذن، فإن للتراث دورًا هامًا جدًّا، وعلينا أن ندرسه وننقده دون أن نتوقف عنده.

يوسف زيدان:

بالنسبة لابن رشد، فإن لي فيه رأيًا خاصًا ، يغلب عليه السلب أكثر من الإيجاب! فابن رشد والمعتزلة وغيرهم مرتبطون بواقعٍ أنتجهم، فكانوا تلبيةً لواقع ماضٍ، والآن هناك واقع جديد، ولا يمكن فهم إنتاج ابن رشد بعيدًا عن حركة النضال التي كانت بين فقهاء المالكية والسلطة في الأندلس في عصره، ولا يمكن فهم دلالة ظهور المعتزلة بعيدًا عن مسألة التحكيم وحرب المسلمين بعضهم لبعض.

إذن، فالتقاط حكم أو شخص لتعميمه خطأ، لذا قلت إن المفيد في البدروم هو قطع فنية تُلتقط، وقد تعجبت من قول أحد المعلِّقين من أن دولةً مثل إسرائيل لا تراثَ لها، وأردُّ قائلاً بأن إسرائيل هي نتاج التراث ذاته، فقد صنعت تراثًا من تراب القرون ومن قطع الفخار، وقد ذكر لي شخص فلسطيني هام أن الحفائر التي تزعجنا من وقت لآخر، والتي تتم تحت المسجد الأقصى ليست بغرض التنقيب عن هيكل سليمان، لكن بغرض وضع قطعٍ وردمها، وقد أخبرني – والعهدة عليه – أن هذه القطع قد تم تصنيعها في ألمانيا، وتوضع وتُردم ثانية، ويفسر هذا أنهم كلَّ مرة يحفرون أسفل المسجد الأقصى يخرجون ليقولوا إنهم لم يجدوا شيئًا، وذلك حتى يظهر ما دفنوه في يوم ما؛ يعلنون فيه ما يستطيعون بحكم سكناهم في الدور الأخير حيث الرياح والشمس والظروف المناخية المواتية، في هذا اليوم سوف يأتون بغيرهم ليستخرج ما وضعوه بأيديهم من قبل، لقد صنعوا تراثًا لم يكن مصنوعًا.

وحول مسألة فصل التراث العربي، أقول إنني لن أفصل التراث العربي، إن مصر القديمة لها تاريخ متصل ومنفصل، وما هو متصل أتحدث عنه على مستوى اللفظة، وحتى الآن نحن نستخدم في لغاتنا العالمية مفردات كثيرة من اللغة المصرية القديمة.

والغريب والمدهش، أنه حتى في قلب الجزيرة العربية وفي فجر الإسلام، تجد في البخاري ومسلم أن الحسين بن علي التقط تمرًا وهو طفل من مال صدقة، فقال له النبي: "كخ كخ نحن لا نأكل مال الصدقة" ولفظة "كخ" لفظة تنتمي إلى لغة المصري القديم. وفي مقبرة باشيدو التي تنتمي إلى الدولة الوسطى منظر رجل ساجد يصلي وأمامه نخلة، إذن هناك اتصال وتداخل بين الحضارات، ولا نستطيع أيضًا أن نفصل التراث العربي عن التراث الأوروبي، وإلا فلماذا يسمى الأوروبيون القاعات الكبرى في السوربون بأسماء العلماء العرب؟ ولماذا عندما هبط الأمريكيون على سطح القمر أطلقوا على إحدى

فوهات القمر اسم الصوفي، وهو عالم الفلك العربي أبو عبد الرحمن بن عمر الصوفي، وهي اللفظة التي يترجمها معاصرونا "أزوفي" دون أن يدركوا أن هذا اسم من أصل عربي، كما أن بعض الناس الآخرين من ذوي اللطف الحضاري يكتبون "أفيروس" بدلاً من ابن رشد.

وأود أن أؤكد أن من يتقدم يُعنى بالتراث، وفي زمن المأمون كانت السلطة السياسية وأفراد من الناس مثل خالد بن يزيد يرسلون نقودًا للحكام وولاة الأمر في المناطق المجاورة؛ ليحصلوا منهم على المخطوطات السريانية واليونانية والفارسية، وكانوا يرسلون المترجمين ويدفعون لهم نقودًا كثيرة، وكان العرب هم من يُعنون بالتراث اليوناني، ثم تخلفنا وتقدمت أوروبا التي تعترف بأنها اعتمدت على أصول يونانية عربية إسلامية من خلال الترجمات، وهذا موضوع لا مشكلة حوله ولا خلاف عليه، ومن هنا فقد اهتمت أوروبا بتراثنا قبلنا، بل اهتمت به أكثر من اهتمامنا به، وفي متحف المخطوطات في مكتبة الإسكندرية نجد نماذج لمخطوطات تؤكد ذلك.

لقد نُشرت متون اللغة العربية في ليدن (هولندا) قبل أن تُنشر في مصر بمائتي عام، فنجد أن كتب ابن هشام الأنصاري الشهيرة في النحو قد صدرت في ليدن قبل صدورها في مطبعة بولاق بمائتي عام. كذلك الأمر بالنسبة لكتاب (القانون في الطب) لابن سينا، والذي يُعد إحدى العلامات المنيرة في التراث العربي؛ صدرت أولى طبعاته في ميلانو عام١٥٧٥، وصدرت له أول طبعة عربية في القرن التاسع عشر.

والسؤال عن: كيف نتصرف حيال التراث / البدروم، أقول إنه لابد أن نقوم بعمل جاد يتولاه دارسون ينـــزلون إلى البدروم، ويقومون بتنظيفه وتحديد المناطق المشرقة فيه، والتي ساهمت في تاريخ الإنسانية بحق.

واليوم إذا ما نظرنا إلى الكتب الموجودة في أكشاك بيع الكتب في محطة القطار في مدينة القاهرة مثلا، سنرى أن ٩٠% منها، أي قرابة ٣٠٠ عنوان معروض تتحدث عن السحر الأسود والسحر الأحمر والجان، وما إلى ذلك! وأتساءل أين كانت هذه الكتب في زمن العطاء الحقيقي .. زمن الحضارة العربية الإسلامية؟ ولا يوجد ضمن كتب السحر هذه كتاب واحد يعود إلى القرن الرابع أو الخامس الهجري؛ لأنه لم يكن هاجس العلوم الخفية موجودًا في هذا الوقت، وكل هذه العلوم ظهرت في الزمن العثماني المتخلف، وأتساءل مرة أخرى، إذا كانت الأمور يتحكم فيها السحر والجن، فلماذا لم يخرج من ابتكروا هذه العلوم من الأزمات التي أحاطت بهم؟ لقد عانوا في هذا الوقت من المجاعات، وكان متوسط الأعمار منخفضًا للغاية، وكان الفقر مدقعًا، وكانت حالة الأمة يُرثى لها، وفي ظل هذه الحالة التي يُرثى لها ظهرت

هذه النوعية من الكتب منذ مائتي أو ثلاثمائة عام، فهل يُعقل أن يأتي أحد اليوم ليلتقط هذه الحشرات ويطرحها على المسافرين؟

ومع هذا، فأنا لا أطالب بالوصاية على التراث، ولكنني أطالب بالوعي به ومعرفته، وإدراك أن القضية الأساسية هي قضية الواقع، وهي قضية تسبق في أهميتها قضية المستقبل؛ فإننا لن نستطيع أن نفهم لماذا حاول شاب ذبح نجيب محفوظ، إلا إذا عدنا للذين قتلوا عليَّ بن أبي طالب، ولن نستطيع أن نفهم فكر الجماعات الإسلامية، إلا إذا درسنا تاريخ هذه الجماعات، ولن نستطيع أن نعرف حركة أوروبا تجاه دول البحر المتوسط، إلا إذا درسنا خمسة قرون ماضية من التفاعل؛ لنفهم ما الذي يجعل التعامل الألماني مع مصر مختلفًا عن التعامل الإنجليزي، ولماذا يختلف الاستشراق الألماني عن الاستشراق الفرنسي؟ فهذه كلها قضايا معروضة، ولكن الناس اهتموا بالمعلومات وغرقوا فيها فانعدمت الرؤية، وأصبح البعض ينـــزل البدروم دون شمعة.

جابر عصفور:

نشكر الدكتور يوسف زيدان على محاضرته المتميزة.